المحاضرة الثانية: نزعة التمرد في شعر الصعاليك

1- المفهوم ودوافع التمرد:

بعد أن وقفنا على مظاهر النزعة القبلية في الشعر العربي قبل الإسلام سنحاول في هذه المحاضرة أن نبرز صوتاً معارضاً ومخالفا لصوت القبيلة، ونقف عند تيار شعري آخر مثّل ثورة الهامش (الصعاليك) على المركز (القبيلة)، ونعني به شعر الصعاليك الذي برز كتيار معاكس رافض للواقع القائم، معتّدٍ بالشخصية الفردية إلى درجة التحدي والتمرد والثورة، يقول يوسف خليف: «وأما الطائفة الأخرى التي بالغت في فهم الشخصية الفردية فهي طائفة الشعراء الصعاليك وهم أولئك المتمردون على النظام القبلي، الكافرون بالعصبية القبلية، المؤمنون بعصبية أخرى شعارها الغزو والإغارة والنهب»[1].

فالحاجة ماسة إلى نفض الغبار عن هذا الخطاب الشعري المتميز، لإنصافه وتجنب اعتبار أصحابه لصوصا، ناهبين سالبين أموال غيرهم، وللكشف عن دوافع الإقصاء الممارس على فئات مقهورة، مهضومة حقوقها، مظلومة حتى في عصرنا.

حيث أن كلمة (الصعلكة) أخذت بالتخصّص لتدل على سلوك معين لشخص من أهم صفاته الفقر، وقد أدرك اللغويون الدلالة الاصطلاحية للكلمة فهم يذكرون أن صعاليك العرب هم "ذؤبانها" وذؤبان العرب هم الصعاليك الذين يتلصصون[2]، بل وقد درجوا على ذكر عروة بن الورد بـ(عروة الصعاليك) في مادة (صعلك).

وفي شعر الصعاليك أنفسهم إشارات إلى أنها كانت معروفة كاصطلاح على ظاهرة اجتماعية محددة، فقد استعمل بعض الشعراء كلمة الصعاليك في شعره، قال **السُليك بن السلكة**[3]:

فلا تصلي بصعلوك نؤوم إذا أمسى يعدّ من العيال

ولكن كلّ صعلوكٍ ضروب بنصل السّيف هامات الرجال

ومثله قول **عروة بن الورد**[1]:

لحي اللَّهُ صُعلوكاً إذا جنّ ليلُهُ مضى في المشاشِ آلفاً كلَّ مجزرِ

ولكنَّ صعلوكاً صفيحة ُ وجههِ كضَوءِ شِهابِ القــابس المتنــوِّر

كما ورد في معجم لسان العرب بأن الصعلوك هو «الفقير الذي لا مال له، زاد الأزهري ولا إعتماد»[2]، فالصعلكة وإن كانت تعني الفقر، إلا أنه قد يكون ماديا أو معنويا، حيث توحي لفظة "الاعتماد" إلى حاجة الأفراد جميعهم للمؤازرة والمساندة، ولن تتحقق تلك الحاجة عندهم في حياتهم الاجتماعية إلا بشرف نسبهم، وتكون لفظة الاعتماد إشارة إلى الحسب والنسب الذي يعتمد عليه الجاهلي في عصبيته، ومن لم يتوفر له ذلك بات مفتقدا كل مقومات الحياة[3]، وقد تناول الصعاليك هذه الفكرة في أشعارهم، ويقول **عروة بن الورد**[4]:

ما بي مــن عــار إخــال علمتُــه سوى أنَّ أخوالي إذا نســبوا نهــد

إذا ما أردت المجد قصّر مجــدهم فأعيا علــيَّ أن يفــارقني المجــد

فيا ليتهم لم يضربوا فــيَّ ضــربة وأنيَ عبْــدٌ فــيهم وأبــي عبــدُ

ثعالب في الحرب العوان فإن تــنجُ وتَنفرِجِ الجُلّــى ، فــإنّهمُ الأُســدُ

تظهر في هذا الأبيات أن ليس لعروة بن الورد ما يفتخر به، بعد أن لحقه الضرر والعار من أخواله الأسود في السلم، الثعالب في الحرب، والشجاعة الحربية من الصفات المثالية المحصورة عند السادة. ولهذا لم يتأهل الصعاليك- بحكم انتمائهم العرقي- لاحتلال المراتب العليا حيث الثروة والسادة، ف «وجدوا أنفسهم في الموضع المهين من

المجتمع، ولم تقبل نفوسهم بحكم طبيعتها وتكوينها هذا الوضع، ولم يكن أمامهم لتفادي هذا الهون إلا الاعتماد على أشخاصهم في قوتها وعنفها، أيا كان مظهر القوة، وأيا كان مظهر العنف»[1].

فأساس حركة الصعاليك اعتداد بالشخصية الفردية، بل مبالغة في هذا الاعتداد، وتحلل من الشخصية القبلية يصل إلى درجة التحدي والتمرد والثورة، فالصعاليك كما عرفهم يوسف خليف جماعات من فقراء القبائل الأقوياء ضاقت بهم سبل العيش في ظلال قبائلهم لاختلال الأوضاع الاقتصادية بها، فانطلقوا إلى الصحراء الفسيحة يشقون طريقهم في الحياة بقوتهم ينهبون ويسلبون، وانضمت إليهم جماعات من خلعاء القبائل الذين نبذتهم قبائلهم وطردتهم من حماها مثل: **حاجز الأزدي، وقيس بن الحدادية، وأبي الطمحان القيني**، وجماعات أخرى من الأغربة السود أولاد الإماء الذين نبذتهم أبائهم **كالسُليك بن سلكة، وتأبطا شرا والشنفرى.** فالصعلوك واحد في أصله هو الفقير إلى النسب والثروة، وبتبنيه الفروسية يكسب الرزق ويخترق حاجز العبودية، وهو ما عبر عنه عروة بن الورد بصيغة التعجب السماعية "لله صعلوك" فهو في مقام المدح والإعجاب والإكبار طالما يسعى لانتزاع حريته على عكس من يختار درب القبيلة والذي يستحق الذم والاحتقار لذا خصّه **عروة بن الورد** في قصيدته بالفعل "لحي" فهو، ملعون وملوم، مفعول به لا فاعل، يقول الشاعر[2]:

فقلتُ له: ألا أُحَيَّ، وأنتَ حُرٌّ ستشبعُ في حياتِكَ أو تموت

وفي البيت انطلاقه: فكرية رائعة من زعيم الصعاليك في رسم الخطة التي ينبغي أن يسير عليها الصعاليك إما حياة كريمة، وإما موت جميل لأن الموت أفضل من حياة الذل والفقر، والامتهان الاجتماعي، الذي وصل إليه حال الصعاليك.

إذن فالدافع الاجتماعي والاقتصادي يبرز كأهم محفز على التمرد عند الشعراء الصعاليك ذلك أن العرب في الجاهلية كانوا يحتكمون لنظام سيد العشيرة القائم على الطبقية الاجتماعية وعدم التوازن في توزيع الثروات والتي عانى منها الفقراء إلى حد كبير حتى ثار الصعاليك على قانون القبيلة وحملوا السيف لإعادة التوازن الاجتماعي إلى حياة مجتمع إختلت موازينه ومقاييسه.

فبالرجوع إلى أخبار الصعاليك، نجد أن الفقر صفة بارزة ومميزة لديهم، فكل الصعاليك كانوا فقراء حتى **عروة بن الورد** سيد الصعاليك وزعيهم، ولذلك نجد في شعره كثيرا من وصف حالة الفقر وما يتكبده في سبيل الغنى من مخاطر ملخصا الظروف التي دفعته وأصحابه للخروج عن قبائلهم[1]:

أقِلِّي عَلَيَّ اللَّوْمَ يا بنَـــت مُنْـــذِرٍ ونامِي وإنْ لم تَشْتَهي النومَ فاسْهَرِي
ذَرِيني ونَفسي أُمَّ حَسَّـــانَ إننـــي بها قبل أن لا أملك البيعَ مشـــتري
ذرِيني أطوِف فِي البلادِ لعلَّنِـــي أخليك أو أُغْنِيكِ عن سُوءِ مَحْضري
فإن فاز سهم للمنيـــة لـــم أكـــن جَزُوعاً، وهَلْ عن ذاكِ من مُتَـــأخَّرِ

وفي الحقيقة لقد كان الفقر وشدة الجوع والواقع المأساوي الذي فرضته ظروف البيئة الطبيعة وقسوة النظام الاجتماعي من الأسباب الرئيسية التي أثارت هذه الفئة من الناس، وجعلتهم يسلكون أسلوب القوة والتمرد، ويثورون على واقعهم الاجتماعي مبتعدين عن الحياة وما فيها من أعراف ظالمة، والمتأمل في شعر الصعاليك يجده متوقدا بصرخات اللانتماء التي كان الشعراء يطلقونها في جل أشعارهم، وما صرخة **الشنفرى** في مطلع لاميته إلا دليلا على ذلك، يقول مفضلا الحياة مع الوحوش الضاربة على العيش وسط مجتمع ظالم جائر متعسف[2]:

أقيموا بني أمي، صدورَ مَطِيِّكم فإني إلى قومٍ سِواكم لأميلُ

فقد حُمَّتْ الحاجاتُ ، والليلُ مقمــرُ وشُدَّتْ لِطياتٍ مطايا وأرحَلُ

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القِلى مُتَعزَّلُ

فالظاهرة المهمة والتي تلفت النظر في حياة الصعاليك الاجتماعية هي تعاظم شعور اللانتماء وفقد الإحساس بالعصبية القبلية التي كانت قوام المجتمع الجاهلي وتطورها في نفوسهم إلى عصبية فئوية، وذلك لأن الخلعاء قد تخلت عنهم قبائلهم وسحبت منهم الجنسية القبلية، وأنَّ الأغربة قد أدركوا أن قبائلهم لا تكاد تعترف بهم، بل تكاد تنكر صلتها بهم، إذن لم يكن هناك ما يوجب حرصهم على العصبية القبلية[1]، وقد انعكست هذه الناحية بموضوعاتها في شعرهم. وانعكس ذلك على حياتهم فكانت حياة صراع؛ صراع مع الفقر والشعور بالمهانة والضياع، وصراع مع الصعلكة نفسها وما يتعرضون له خلال ذلك من مخاطر ومشقات وصراع مع الأعداء... حتى أنه يمكن أن نسمى شعرهم "شعر الصراع" كما أطلق عليه بعض الباحثين، حيث « يمكن إجمال موضوعات الصراع التي طرقها شعرهم في ثلاثة موضوعات رئيسية أولها الأسباب التي من شأنها أن تدفعهم للصعلكة كالفقر وآثاره، والشعور بالهوان في المجتمع والضياع فيه، وثانيها حياة الصعلكة نفسها وبيئتها وأساليبهم في مزاولتها، وما يتعرضون له خلال ذلك، وما يعدونه من أسلحة لها وما إلى ذلك وثالثها الآثار التي تجرها عليهم الصعلكة كالأعداء...»[2].

إذن فشعر الصعاليك من ناحية البناء الموضوعاتي متشعب بين وصف أحاديث الفرار، والمغامرة والتوعد والتهديد، وشعر المَرَاقِبْ[3]، ووصف الأسلحة، والفقر وآثاره، وصراع الهوان في المجتمع...

---

[3]- المَرَاقِبْ: المرتفعات العالية التي يشرفون منها على الطريق يتربصون بأعدائهم، ويترصدون ضحاياهم لتحيُّن الفرصة المناسبة للهجوم عليهم، يقول الشنفرى في وصفه مرقبة منيعة عالية يعجز دونها الصياد الماهر، خاصة مع الليل الذي هو أحصن للتخفي والهرب:

وَمَرقَبَةٍ عَنقاء يَقصرُ دونَهــا أَخو الضَروة الرَجلُ الحفيُّ المُخَفّفُ

نعيتُ إِلى أعلى دارها وَقَد دَنا مِــنَ اللَيلِ ملتــفّ الحَديقَةِ أَسدَفُ

2- الظواهر الفنية في شعر الصعاليك و مظاهر التمرّد:

يمتاز النص الشعري الصعلوكي بعدّة خصائص وظواهر فنية هي مظاهر التمرّد على الشعر القبلي، يقول **يوسف خليف**: «ومن الطبيعي، ما دامت الصلة بين الشعراء الصعاليك وقبائلهم قد انقطعت اجتماعيا- أن تنقطع فنيا أيضا- وأن يصبح ذلك "العقد الفني" الذي رأيناه بين شعراء القبائل وقبائلهم لا موضع له، ولا يصبح الشاعر الصعلوك لسان عشيرته لأن عشيرته لم يعد لها وجود في نفسه، ولا يصبح شعره صحيفة لها لأن ما بينه وبينها قد انقطع، وإنما يصبح شعره لسان شخصيته الفردية، وصحيفة أحواله الخاصة التي لا يشاركه فيها غيره»[1].

إذن فقد تركت الدوافع سابقة الذكر أثرها في إبداع خطابهم الشعري، فتجلت مظاهر التمرد في شعرهم فكرياً وفنياً؛ أي من ناحية الموضوعات، ومن ناحية البناء الفني لقصائدهم، ولعل أبرز مظاهر التمايز بين شعر الصعاليك وشعر القبلية يتجلى في أول خاصية مميزة لشعرهم، وهي:

أ- وحدة الموضوع والتخلص من المقدمات الطللية:

تتجلى وحدة الموضوع أساسا في بنائهم الشعري لتختفي عناصر القصيدة المركبة، ذلك أننا لا نجد أثرا لمقدمات تمهيدية من غزل وبكاء وأطلال ووصف لرحيل أو استطراد إلى موضوع، بل نجد في مقطوعاتهم وأكثر قصائدهم وحدة موضوعية بحيث نستطيع أن نضع لكل مقطوعة عنوانا خاصا بها، دالا على موضوعها ف «الطلل تقليد جاهلي، يبدو فيه المكان ممزقا ومندثرا، يبكي فيخ الشاعر مستعيدا ذكرياته، بيْد أن عالم الصعاليك جديد يتطلع نحو المستقبل، لا تربطه بالماضي رابطة»[2]، وهذا ما وقفنا عليه في مطلع لامية الشنفرى سابقا.

ب- شعر المقطوعات: حين ننظر إلى شعر الصعاليك من ناحية بنائه الخارجي يلفت أنظارنا أنه شعر مقطوعاتٍ لا قصائد، حيث نجد جلَّ قصائد الصعاليك عبارة عن مقطوعات باستثناء بعض القصائد كتائية الشنفرى، ولعل مرد ذلك إلى أنهم ذوو خفة وسرعة وإختلاس لم يألفوا التمهل والتروي والتنميق، فجاء شعرهم صورة لحياتهم، تلك الحياة القلقة المشغولة بالكفاح في سبيل العيش التي لا تكاد تفرغ بالفن من حيث هو فن يفرغ صاحبه لتطويله وتجويده، فإذا وقفنا على ديوان **عروة بن الورد** مثلا نجده يتشكل «من اثنين وأربعين نصا مجموع أبياتها مئتان وأربعون أي بمعدل 05.71 بيتا للنص الواحد، وهو أمر طبيعي في شعر الصعاليك إذ أنّ أغلبه مقطوعات، ففي الديوان ثلاثة عشر نصا فاقت السبع أبيات لكل منها، مما يستوجب تسميتها قصيدة، أما السبعة وعشرون الباقية فهي مقطوعات».[1]

ولعل انفراد الخطاب الشعري عند الصعاليك بهذه المزايا والخصائص له ما يبرره؛ ذلك أنهم كانوا يتجهون إلى الموضوعات التي تعبر عن طموحاتهم وتنسجم مع هواجسهم الشعرية، فالشاعر الصعلوك يقف على القضايا الاجتماعية التي خرج لأجلها، من تصوير الفقر وكيفية تجاوزه بالكرم والتكافل، وسرد ليومياتهم، ووصف لرحلاتهم في الصحراء... فشعرهم هو صدى لواقع حياتهم، لا لواقع قبيلتهم وهذا يوقفنا عند خاصية أخرى وهي التحلّل من الشخصية القبلية.

جـ- التحلّل من الشخصية القبلية: من الطبيعي أن لا تظهر الشخصية القبيلة في الخطاب الصعلوكي، بعد أن فقد الشاعر إحساسه بالعصبية القبلية، وأن يصبح شعره صورة صادقة عن حياته، يصور نفسيته وأعماله اليومية، ويسجل صحيفة أحواله الخاصة التي لا يشاركه فيها غيره، وأن يصبح ضمير الفرد (أنا) أداة التعبير فيه بدل ضمير الجماعة (نحن) الذي عهدناه أداة التعبير في الشعر القبلي، ومثال ذلك قول **السُليك**[2]:

يُكَذِّبني العمرانِ: عَمرُو بنُ جَندَبٍ وَعَمرُو بنِ سَعدٍ وَالمُكَـذِّبُ أَكـذَبُ
سَعَيتُ لَعَمري سَعيَ غَير مُعجَـزٍ وَلا نأنـأ لَـو أَنّنـي لا أكـذِب
ثكلتكمَا إن لم أكن قـد رأيتهمَـا كراديس يهديه إلى الحـي موكـبُ

تظهر من خلال هذه الأبيات النزعة الذاتية طاغية بجلاء من خلال الضمائر الدالة على الفرد، ويمكن القول أن هذه السمة تنسحب على جلّ شعر الصعاليك، لأنه إن ظهر جانب "جماعي" في شخصية الصعلوك وشعره، وترتب عليه ظهور (نحن) من حين إلى حين، كان تعبيراً عن أفراد جماعة الصعاليك فمادة شعرهم «ليست مشتقة من شخصيات قبائلهم، ولكنها مشتقة من شخصياتهم الفردية وما تقيض به من ثورة على المجتمع القبلي وتمرد عليه وتحد له»[1]

حتى أن الزمن تحوّل عند الشعراء الصعاليك إلى زمن فردي متجه نحو المستقبل هاربا من الزمن الجماعي- المتجه إلى الماضي-، خارجا عن الأمور الأساسية له وأولها رمز الأطلال، إن الشاعر الصعلوك لم يعد يعرف الرمز بعد أن غدا يؤسس للفعل الإنساني باعتباره الخالق المبدع الذي يندفع في العالم لنيل الرزق بالفعل البطولي[2]، إذا أصبحت عنده الأماكن متساوية طالما حققت لهم المآرب والأغراض، والأزمان تطلعت إلى المستقبل طالما لا تربطه بالماضي رابطة، يقول أحد شعرائهم:

ففي الأرض عن دار المذلة مذهب وكل بلاد أَوْطَنْتُ كبلادي

فالتجربة الصعلوكية تعدّ صوتا آخر يحاول أن يثبت وجوده في مقابل سطوة الأنا الجماعية، بعد أن احتكر سادة العشائر مواضيع الخطاب الشعري الجاهلي باعتبارهم شخصيات محورية ومرموقة تدور حولها القصائد الشعرية مدحاً، وفخرا، ورثاء...

د- القصصية: تختلف القصيدة الصعلوكية عن بقية الشعر الجاهلي فنيا ليس على مستوى الهيكل فحسب بل على مستوى اللغة والأسلوب والمعجم، فشعرهم يغلب عليه مظاهر

القصصية التي تتناسب مع سرد اليوميات الصعلوكية، حيث أنّ الشاعر الصعلوك يسجل كل ما يدور في حياته الحافلة بالحوادث المثيرة التي تصلح مادة طيبة للفن القصصي، فحوادث مغامراتهم وأخبار فرارهم وأحاديث تشردهم في أرجاء الصحراء وتربصهم فوق المَرَاقِب في انتظار ضحاياهم، كل هذا وغيره من مظاهر حياتهم مادة صالحة للفن القصصي.

هـ- عدم الحرص على التصريع: التصريع تقليد فني يُسهم في بناء جمالية النص الشعري لم يلتزمه الصعاليك إلا في القليل النادر، فالطابع الغالب عليه خلوه من هذه السمة البارزة في شعر غيرهم، بينهما عندهم لا نجد إلا نسبة قليلة مصرعة، أما الكثرة الغالبة فلا تصريع فيها[1]. إذن فأكثرية شعر الصعاليك غير مصرع على خلاف أكثرية شعر غيرهم في تلك الفترة، وبهذا يكون الشعراء الصعاليك قد رفضوا التقاليد الفنية على غرار رفضهم للعادات الاجتماعية؛ فتلك الثورة التي كانت تجيش بها نفوس الصعاليك على أوضاعهم الاجتماعية، وتلك الحرية التي كانوا يعيشون فيها والتي كانت ترفض الخضوع لتقاليد مجتمعهم ظهرت أثارهما عن طريق العقل الباطن في حياتهم الفنية، فكان شعرهم ثائرا على الأوضاع الفنية في الشعر الجاهلي القبلي حرّاً في أوضاعه الفنية[2].

وفي الختام يبدو مصطلح التمرّد في ظاهره شيئا سلبيا رغم أنه في الحقيقة يتصف بالايجابية العميقة، لكشفه عن عناصر كامنة في الإنسان تتطلب الدفاع عنها والحفاظ عليها فرغبة الشعراء الصعاليك في تحقيق صورة العدالة الاجتماعية، ومحو الفوارق الطبقية هو الدافع الأساس في تصوير الصراع بين الفقراء والأغنياء، وبين الأحرار والأرقاء عبر لون شعري جسّد أفكارهم وأبرز مظالمهم بعد انفصالهم عن جسدهم (القبيلة) مفضلين الخروج إلى الفيافي والقفار بحثا عن مجتمع بديل عادل، فمهما كان في شعر الصعاليك

نوع من التمرد على الأعراف الفنية، وعلى الأطر الفكرية التي إرتسمت على منوالها معالم القصيدة العربية منذ عهدها الأول إلا أن إبداعهم الشعري جاء متناسبا مع رسالتهم في الحياة .